في الطريق إلى قرطبة

للأستاذ محمود تيمور

[عندما استتب الأمر لأبي العباس السفاح أول خلفاء العباسيين هرب الأمير عبد الرحمن الأموي من العراق ووجهته الأندلس ليتسنم عرش الامارة فيها بمعاونة أنصاره الأمويين . فبينما كان في شمال أفريقيا وقعت له هذه الحادثة التي نرويها]

كان القمر ينشر نوره الفضي على قرية «منيلة» في مراكش، فتبدو الدور على ضوئه الهادئ كأنها تتمطى مبتسمة راضية هامتها إلى السماء تنفض عنها فتور النوم. في تلك الساعة التي بدأت فيها القرية تتنفس كان يسير في طريق من طرقاتها المهجورة رجل طويل القامة نحيف الجسم ملتف بعباءة دكناء ووجهه ملثم. كان يسير سيراً حثيثاً في مشية حذرة، متجنباً الأماكن التي انجلت عنها غبشة الليل، تدل مظاهره التي يجتهد في إخفائها على الامارة والجاه. ولما دنا من دار «وانسوس» رئيس أقوى قبائل البربر في تلك الجهة توقف عن المسير والتفت حوله ثم دفع الباب في سكون ودخل، ثم أحكم إغلاقه خلفه، وما إن خطا بضع خطوات، حتى تقدم إليه «وانسوس» في خضوع وقال في صوت خافت:

— مولاي الأمير

— كنت أضل الطريق

وبدأ الزائر يرفع لثامه ويحل عباءته، فظهر عارضاه الخفيفان وبانت ضفيرتاه على ظهره، وسار بخطوات رزينة وخلفه «وانسوس»؛ وقال:

— هل أحضر «بدر» الجواهر؟

— أحضرها يا مولاي وهي وديعة عندي لا تستطيع أن تمتد إليها يد إنسان

— وماذا قال لك؟

— إن أختك «أم الأصبع» تقرئك السلام وتقول لك إنها سترسل لك غيرها

— بورك فيها.. وماذا بعد ذلك يا «وانسوس»؟

— إن وهب بن الأصفر وشاكر بن أبي الأسمط يستحثانك على السفر، إن المركب معد وهم في انتظارك

وكانا قد بلغا بهواً تتوسطه نافورة وقد نثرت بجوار حيطانه وسائد عريضة؛ فوقف الأمير أمام النافورة يتأمل المياه ويداه مثنيتان على صدره وقال:

— وأهل الأندلس؟

— يرحبون بمقدمك لتتقدمهم من أميرها يوسف بن عبد الرحمن الفهري. هناك أبناء عمومتك يا مولاي ومعهم أنصارهم الأقوياء، ثم لا تنس القبائل اليمنية

— هذه حطمتها قوات الفهري

— بل ما زالت محتفظة برجالها الأقوياء

— إن الحروب الأهلية يا «وانسوس» قد أنهكت الأندلس، وعمها القحط وجلا كثير من أهلها عنها، فإذا أردنا أن نستعجل النصر فلنعتمد على الذهب نكسب به الأنصار

ودخلت في تلك اللحظة «تكفات» زوجة «وانسوس» وكانت امرأة بدينة تلبس إزاراً واسعاً، دخلت في عجلة واضطراب وهي مكفهرة الوجه وقالت:

— بينما كنت على السطح في مكاني المخصص للمراقبة أبصرت رهطاً من الرجال مقبلين في سرعة وتلصص نحو الدار، فاشككت أنهم من رجال ابن حبيب

فتغضن وجه الأمير وقال بصوت أجش:

— لقد وشى بي الواشون

وهرع وانسوس إلى البرج ليستعلم الخبر ثم عاد مضطرباً وهو يقول:

— عجل يا مولاي بالهرب

وجرى الإثنان نحو البرج، ولكن ما كادا يطلان منه حتى عادا أدراجهما والأمير يتمتم:

— لقد أحاطوا بالدار

وسمعت فى هذه اللحظة جلبة عالية فى الخارج فيها وعيد وتهديد وطرح الأمير عبد الرحمن عباءته واستل سيفه ووقف وقفة الجبار ناظراً إلى باب البهو وقد انطبع على محياه المهيب عزم رهيب وقال :

— إنى لأشعر بأرواح بنى أمية كلها قد تقمصت جسدى فليأت ابن حبيب وجيشه وليجرب حظه معى

واشتدت الجلبة وسمع قرع قوى على الباب وأصوات تقول :

— افتحوا . . .

وقال الأمير لوانسوس :

— إذهب وافتح الباب

ووقف وانسوس متردداً

وتكرر القرع بحماس شديد . وسمع الباب يهتز ويتفلق والأصوات تتعالى فى سخط مرددة :

افتحوا . افتحوا . . .

فقال الأمير وهو ينظر إلى وانسوس نظراً حاداً :

— لقد أمرتك أن تفتح الباب

فقال وانسوس فى ذلة ويأس :

— الأمر لك يا مولاى

وذهب قاصداً الباب . وما كاد يخرج حتى أشرق وجه تكفات بغتة ولمعت عيناها . وتقدمت فى جرأة غريبة نحو الأمير وقالت :

— إنها لحظة من لحظات الدهر الخالدة . فإما إلى العرش وإما إلى القبر ... تعال

* * *

وفتح وانسوس الباب فتدفق الرجال فى صحن الدار وضجتهم تسبقهم ، ووقف زعيمهم مكشراً أمام وانسوس وقال :

اقبضوا على هذا الخائن ...

وفى لحظة كان وانسوس مقيداً وملقى بجوار الحائط ؛ وأتم الزعيم أمره قائلاً :

— دونكم الدار فلا تتركوا مخبأ إلا دخلتموه ، أو ركناً إلا فتشتموه ، وإياكم ألا تعثروا عليه

فانتشر الرجال فى الدار يفتشون ، وسار الزعيم فى رهط من أنصاره قاصداً إلى بهو النافورة واختفى الجميع فيه

* * *

ومضى الوقت ووانسوس ملقى بجوار الحائط يصغى بأذن مرهفة إلى ضجيج الرجال فى داخل داره وعيناه الحائرتان لا تفارقان باب البهو

وأخيراً فتح الباب وخرج منه الزعيم وخلفه رجاله . ولما دنا من وانسوس ألقى عليه نظرة احتقار ثم التفت إلى جماعة بالقرب منه وقال :

— حلّوا وثاق هذا الرجل

ثم سار فى عجلة نحو الباب وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة وخرج والجميع فى أثره . وقام وانسوس وهو يفرك عينيه دهشا ، وبعد أن أحكم قفل الباب سار مهرولاً إلى بهو النافورة فوجد زوجته « تكفات » جالسة على إحدى الوسائد متكئة بظهرها على الحائط ؛ فما شك وانسوس أن قواها خارت من الخوف . فأقبل عليها وسألها قائلاً :

— أين الأمير ؟

وفى لحظة كشفت إزارها الواسع فخرج من بينه الأمير ؛ وما إن توسط البهو حتى قال :

— تالله إن عرش الأندلس لمدين «لتكفات» بهذه الحيلة . لن أنسى لك هذا الجميل يا « تكفات »

فانحنت للمرأة أمامه فى خضوع

ووقف الأمير عبدالرحمن أمام النافورة وبداه مثنيتان إلى صدره ، وقال وقد سطع على وجهه العزم واليقين فى صوت ممتلئ قوى :

لقد بت أعتقد أن العناية تساعدنى . فهناك على شاطئ الفرات حيث كانت قرسان أبى العباس تلاحقنى أنا وأخى نجوت بأعجوبة لم أكن أحلم بها فى حين أن أخى قد عاكسه القدر فقُبض عليه وقُتل على مرأى منى . وهنا تمر بى رجال أبى حبيب وأنا على بعد خطوات منهم فلا يخامرهم شك فى أنى غير موجود

وأرسلت عيناه وميضاً عجيباً ، والتفت حوله وهو رافع الرأس كأسد منتصر على فريسته وقال :

— إيه أيها القدر ! تعصمنى والعباسيون يتهالكون على الفتك بى ، يطاردوننى فى كل شبر من الأرض ... إنى لأرى الأندلس تدنو منى كما يدنو مقبض هذا السيف من يمينى

محمود تيمور

حكم فى الجنحة المستأنفة رقم ٩٦٩٨ سنة ٩٤٠ ضد محمد حسن عراقى بتغريمه ٥٠ قرشاً ونشر الحكم بمجلة الرسالة والثقافة ليمه كبيراً أزيد من التسعيرة